فى طريق المدينـــــة*

للأستاذ على الطنطاوى

لفح وجهه نسيم الفجر البارد ، فهمّ بأن يقوم الى النافذة فيغلقها ويعود الى سريره ، ثم تخاذل واسترخى ، ولبث مستلقياً ، فسمع أصواتاً غريبة ، خيّل اليه أنها أصوات الوحوش ، أو أحاديث الجنّ ، فجمد من الخوف ، وحدّق فيما حوله ، فرأى كأنما هو نائم فى أرض الشارع ، وعلى جانبيه أبنية فخمة عالية ، مربّعة ومستديرة ، والوحوش تطلّ عليه من أعاليها ، تصرخ صراخاً مرعباً ، فاستعاذ بالله من هذا الحلم ـ وتقلب فى فراشه ، وألقى بيده على طرف السرير ، فأحسّ كأن قد وخزته ابرة ، أو كأن حية لدغته ، فقفز مذعوراً . وإذا هى الحقيقة لا الحلم ، وإذا حيال يده نبت من نبت الصحراء ، قصير شائك يقال له القتاد . . . كانت تضرب به الأمثال ، وإذا هو فى البادية ، فى « خور حمار » وإذا هى الرحلة تمتد به ثلاثة عشر يوماً ، وهو لايزال دون (العلا) ، ولايزال بينه وبين المدينة جبال وصحارى تسير فيها السيارة أياماً

فجلس يذكر ما رأى فى هذه الرحلة من ألوان العذاب ، وأشكال الخوف ، وما مرّ به من مشاق وصعاب أبصر فيها الموت عياناً ، ويئس فيها من النجاة . . . وذكر أنهم طالما تمنوا الموت لما وجدوا من العناء ، وأنهم طالما سلكوا من شعاب تقوم فيها السيارة وتقعد ، ولاتنجو من شدة إلا إلى أشد منها ، وطالما ساروا فى رمال كانت تغوص فيها السيارة الى المرقاة فيدفعونها دفعاً ، ويمدون لها الخشب على الأرض مداً ، وطالما صعدوا جبالاً يعجز صعودها الماشى على رجليه ، فكانوا يجرون السيارة بالحبال ، وطالما هبطوا أودية لا يهبطها ممثلو الروايات الأميركية ... وأنهم ساروا ألفاً وثلثمائة كيل فى أرض لم تطأها قط سيارة [1] . . .

وأنهم سلكوا بين تبوك والعلا معتكاً فى جبال المطلع ، ساروا فيه بالسيارة من ضحوة اليوم الى عصر الغد ، فلم يقطعوا من الطريق خمسة عشر كيلاً . . . وكانوا يدورون فيه كما دار بنو اسرائيل فى التيه . يمشون ما يمشون ثم يعودون من حيث جاءوا ، وجبال المطلع جبال عظيمة غريبة الشكل ، ليست سلاسل ، ولكنها آكام عالية ، وجبال منفردة ، عالية الذرى ، محدّدة القمم ، تشبه ذراها رءوس المآذن وهام البروج ، لها منظر جميل فتان ، فيه هيبة ، وعليه جلال ، وهى منثورة نثراً ، تفصل ما بينها مضايق وطرق صخرية ملتوية متشابهة ، حار فيها الدليل ؛ وكان معهم دليل حاذق شيطان من شياطين العرب ، يقال له محمد الأعرج من مشايخ بنى عطية ، وهو أعرج طويل له عينا ذئب ، حاد الذكاء ، ضيق الصدر ، مخيف ، كانوا يتهيبون سؤاله ، فداروا فى هذه المسالك حتى نفد منهم الصبر ، وأدركهم الاياس ، فصعد الدليل قُنّة أكمة ، فنظر يميناً ، ونظر شمالاً ، ثم صاح : لا إله إلا الله ، وتلك عادتهم : إذا أبصروا وادياً ، أو رأوا سهلاً ، أو طلع عليهم جبل ، تشهدوا . . . ثم نزل يظلع وقادهم فى طريق ملتوية حتى جاوز بهم المطلع ، وأشرف بهم على السهل الفسيح . وكان عليهم أن يهبطوا السهل ليخترقوا جبل الأقرع وهو قبالتهم ، فنظروا فلم يجدوا مهبطا ، وكانوا على رأس جدار قائم من الصخر ، ارتفاعه أكثر من أربعين متراً ، والنزول منه خطر محقق ، ولكن الرجوع موت أكيد ، وإذا هم رجعوا وضلوا أياماً نفد فيها ما معهم من ماء ، فهلكوا لامحالة عطشاً ، فاستخاروا الله ونزلوا نزولاً ما نظن سيارة نزلته مذ خلق الله السيارات : تتدحرج من تحتهم الحجارة الى قرارة المنحدر ، فيكون لها قرقعة مخيفة ، والسيارة كأنما هى من الانحدار قائمة على مقدمها ، والركاب شاخصة أبصارهم ، ينظرون عن أيمانهم وعن شمائلهم ، لا يدرون من أين يأتيهم الموت وقد تابوا واستغفروا ، واستودعوا الله أولادهم وأموالهم . . .

* كتبت هذه الكلمة فى خور حمار ، وهو الممر الوحيد فى جبال الزيلعة ، لابد للسافر من دمشق الى المدينة من اجتيازه ، بنا فيه ليلة الجمعة لثمان مضين من المحرم مع الوفد الذى خرج من دمشق يوم الأحد لأربع بقين من ذى الحجة لفتح طريق للسيارات بين دمشق والمدينة يرأسه سعادة الشيخ ياسين بك الرداف المعتمد السابق للحكومة الحجازية فى الشام ، وهو صاحب هذا المشروع واليه يعود الفضل فيه

(١) الا سيارة صالح بن عبد الواحد أمير القريات التى سار بها من القريات الى المدينة

ومرّت عليهم ربع ساعة أهون منها رباط سنة فى جبهة الحرب ، ثم وفق الله فبلغوا السهل ، وهم يشهدون أن لا إله إلا الله . . . ويهيمون كمن صحا من حلم مروع !

وكانت الشمس قد غابت ، والليل قد ارتفع ، فنزلوا للمبيت يستمدون لوادى الأقرع ، وكانوا على رغم ما لقوا يسمعون من الدليل أنه هيّن بجنب خورحمار ، وأن العناء والبلاء إنما هما فى خورحمار ، فكانوا يرون خورالحمار هذا فى أحلامهم ، ويبصرونه فاتحاً فاه لابتلاعهم ، ويرون حيال رأسه حجراً مكتوباً فيه : هنا مات الوفد الأول الذى ذهب لفتح طريق السيارات . . .

وتلقوا من الغد وادى الأقرع ، فلما ولجوه ذكروا بالخير جبال المطلع ، ووجدوها حيال نار الأقرع جنة النعيم ، والوادى عريض فسيح ولكنه وعر ، كله صخور عظيمة ، ورمال خطرة ، إذا نجت السيارة من رملة صدمتها صخرة ، وان خلصت من الصخر غاصت فى الرمل ، فداروا فيه كما يدور الحمار فى الساقية ، وكان سيرهم سير السواق ، سفراً لا ينقطع . . . . ثم فتق لهم التفكير وجه الحيلة ، فأجمعوا الرأى على أن يركبوا السكة بالسيارات ويعجبوا من أنفسهم كيف حملوا هذا العناء كله ، ولم يهتدوا إلى هذا الرأى . . . وكانت السكة عالية تمشى فوق الوعرة كأنها الصراط ممدوداً فوق جهنم ، فامضوا ساعتين فى ارتقائها ، ثم لما ركبوها تعذر السير عليها ، فعجبوا من أنفسهم كيف ارتكبوا هذه الحماقة ، ولم يعلموا أن السيارة لا تمشى على سكة القطار ، وأنفقوا ساعتين أخريين فى النزول عنها ، حتى إذا نزلت جلسوا على الأرض وقد طحن الجهد أجسامهم ، وملأ اليأس نفوسهم ، وانقطع أملهم من كل شىء إلا من الله ، وضل من يدعون إلا إياه ، فاقبلوا على الله بالدعاء والاستغفار ، وذاقوا من حلاوة الايمان وبرد اليقين ، ما اطمأنت به نفوسهم ، وارتاحت له ضمائرهم ؛ ثم لم يلبثوا أن استجاب الله دعاءهم ، وجاءهم منه الفرج ، وسمعوا هتاف الجند الذين بعث بهم أمير العلا بأمر جلالة الملك عبدالعزيز لمعونتهم وخدمتهم . . .

* * *

جلس يفكر فى هذا كله ، فيراه هيناً إذا قيس بخور حمار وذكر كيف أمضوا نهاراً بطوله ، يستمدون لدخول الخور ، فلما أقبلوا عليه رأوا مدخله كالشارع العظيم ، على جانبيه صخور كبيرة مكعبة مستوية قائمة كالبنيان ، كأنما قد بنتها يد بناء حاذق ، بميزان الزئبق والشاقول ، وفى وسطها جدار من الصخر عرضه ستة أمتار ، يشبه فى شكله سفينة عظيمة لم تنزل بعد إلى البحر ، لها مقدمها وجوانبها ، وقد قدر أصحابنا علو هذه الصخور من مائة إلى مائة وخمسين متراً ، فامتلأت نفوسهم رهبة وخشوعاً ، وأحسب أن لو رأى هذا الممر سياح الأمريكان لحملوا فى سبيل رؤيته عناء السفر فى البادية مهما طال وشق . . .

وأرض هذا المضيق رملية حمراء يغوص فيها الماشى إلى الركبة ، لها شكل متموج جميل يشبه شكل البحر ، يلذ المرء أن يلقى بنفسه عليها ، فيشعر كأنما يلقى بنفسه على فراش ناعم حلو . أو ينام على سطح الماء . . .

وذكر كيف انقضى النهار وانقضى الغد ولم يجاوزوا نصف المضيق ، ورفع رأسه وكان الفجر قد انبلج ، وبدت طلائع النهار ، فرأى هذه الصخور الشاهقة المستوية ، وهذه الشقوق التى تحدث فيما بينها مثل الأزقة ، يملأ مرآها النفس خشوعاً

وذكر كيف بذلوا جهدهم ، واستعانوا بعشرين من الجنود الأقوياء ثم لم يقطعوا فى يومين أكثر من كيلين فى هذا المضيق ، وخالط نفسه الضيق والملل من طول هذه الرحلة وعنائها وما قاسى فيها من التعب والجوع والعطش والنعاس ، وما عانى من سوء الصحبة ، وقبح الأخلاق ، وخاف أن تعطل السيارة ، أو يضلوا الطريق ، أو تمسكهم وعرة ، فينفد الماء ويموتوا عطشاً .. ولم يخف لصاً ولا سارقاً ، فقد جعل ابن السعود خور حمار وهو أفظع مكان فى البادية ، آمن من ميدان النجم فى باريز !

وفكر أيبلغ المدينة أم يهلك من دونها ، وهاجه تصور المدينة ، وأحيا فى نفسه الأمل مرأى القبة الخضراء وهى طالعة عليه من وراء الأفق البعيد ، وطار بها إلى الملأ الأعلى تخيله الوقوف بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصلاته فى الروضة ، وقيامه من بعد أمام الكعبة ، وشربه من ماء زمزم ، وسعيه بين الصفا والمروة ، وشهوده هذه الأماكن التى ولد فيها الاسلام

وعاش فيها محمد صلى الله عليه وسلم ، وكانت مهبط الوحى ، ومطلع شمس النبوة ، ومعقد الآمال من نفس كل مسلم

واستغرق فى تفكيره فلم ينبهه إلا صوت مؤذن القوم يرنّ فى هذا الوادى الساكن : الله أكبر ، لا إلـه إلا الله ، فتردد نداءه هذه الصخور الشم . وتمد الابل أعناقها مصيخة هادئة ، ويهب البدو من منامهم ليقيموا الصلاة ، وأصحابنا السواقون ومعلموهم يغطون غطيط البكر . . .

ثم قاموا إلى الصلاة ، فامحى الخوف من نفسه ، وصغرت عليه البادية ، وهانت عليه مشاقها ، وتضاءلت هذه الجبال القاتمة حتى كأنما لصقت بالأرض ، وكأنما طويت له الغبراء فلم يعد ماقى فى البادية على بعد ألف وثلثمائة كيل من منزله فى دمشق كحبة من الرمل ، أو هو أهون على الحياة منها ، لأنها وان طار بها ريح ، أو حملها سيل ، باقية كما كانت ، لا تموت ولا تندثر ، وهو يموت من أجل رغيف من الخبز وكأس من الماء ، بل أحس كأنما هو فى منزله ، ولم لا ؟ وما يناله فى البادية إلا ما قد كتب عليه ، ولا ينال فى منزله إلا ما كتب له ، وإذا كان يأمن على نفسه اللصوص والأعراب ، وينام فى عرض الصحراء ، كما ينام فى أرض غرفته ، لا يمنعه باب ، ولا يحميه حارس ، ولا يخالط نفسه خوف ولا جزع ، لأنه فى حمى ابن السعود وأرضه ، أفلا يأمن من كان فى حمى الله رب ابن سعود وأرضه ؟

وكان القوم قد هبوا فأقبلوا يضمون الشاى والقهوة ، وجلست حيال صخرة أكتب هذه الكلمة « للرسالة » ، لأبث بها مع جندى من البدو إلى بريد العلا . . . . ولست أدرى أنخرج من هذه البادية فنقرؤها ، أم تبتلعنا هذه الصحراء التى ابتلعت دولاً وأمماً وجيوشاً

وسيقرأ هذا الفصل قراء « الرسالة » وهم فى دورهم ومساكنهم ، لا يدرون ما الصحراء ، ولا يعرفون منها إلا ذكرها فى الكتب ووصفها فى الأشعار ، فيحسبونها تسلية أو خيالاً ، وما هى بالتسلية ولا بالخيال ، ولكنه مقام بين الموت والحياة ...

اللهم سلم !

على الطنطاوى

هل تأثر الفقه الاسلامى بالفقه الرومانى ؟

أو الحقيقة هى العكس ؟

بقلم صالح بن على الحامد العلوى

اطلعت فى العدد الحادى والتسعين من « الرسالة » الغراء على مقالين أحدهما للأستاذ أمين الخولى ، والآخر للأستاذ على الطنطاوى ؛ وكلا المقالين دائر على مقال آخر قد نشرته الرسالة عن الامام الأوزاعى للأديب الفاضل عبد القادر الجاعونى

ولم يستثر كتابتى من هذا ولا ذاك شئ إلا نقطة واحدة طرقها الثلاثة وكانوا فيها جد مختلفين ، وكادت بل شاءت الرسالة ان تساهم فى المعمعة ولكن بايجاز وإيماء . والنقطة المختلف فيها هى ما جعلته عنواناً لأسطرى هذه وهى : هل تأثر الفقه الاسلامى بالقوانين الرومانية أم الحقيقة هى العكس ؟ إذ تعرض الكاتب الجاعونى فيما كتبه عن الأوزاعى لقولة كولد زهير بتأثر الفقه الاسلامى بالفقه الرومانى وقال : (إن كان هذا صحيحاً فأحر بالأوزاعى أن يكون آخر المتأثرين به لأنه من أبعد الفقهاء عن الرأى ومن أقربهم إلى اتباع الكتاب والسنة ، والكتاب والسنة أبعد الأشياء عن التأثر بالفقه الرومانى) فكان الأستاذ الخولى فيما كتبه مؤيداً لرأى تأثر الفقه الاسلامى بغيره ، وكان الأستاذ على الطنطاوى فى مقاله منكراً كل الانكار أن يكون الفقه الاسلامى مأخوذاً من الفقه الرومانى ، وتشاء الرسالة أن تعلق عليه بأن هناك فرقاً شديداً بين التأثر والأخذ

وعلى تسليم صحة الفرق بين التأثر والأخذ فمحصل كلام الأستاذ الطنطاوى إنكارهما معاً والجزم بأن ذلك فى زمن العلم خرافة من الخرافات

هذه هى وجهات نظر هؤلاء الكتاب . ومهما قلنا بالفرق بين الأخذ والتأثر فكلا المعنيين يجريان إلى مدى واحد ، وهو أن يكون فى أصل الفقه الاسلامى ومزاجه شئ من الفقه الرومانى .